

أحمد بن بلّّه

2012 – 1916

أبطال الثورة الجزائرية وقادتها عديدون، منذ إرهاباتها الأولى وفي مراحل تطورها وصولاً بها إلى انتصارها التاريخي. أول هؤلاء الثوار هو بن بادس. ولمصالي الحاج دور في بواكير الثورة. وهناك آخرون ممن أطلقوها في مرحلتها الأخيرة في مطالع خمسينات القرن العشرين، وممن التحقوا بها فور إعلانها وصاروا جزءاً أساسياً منها. وفي مقدمة هؤلاء الشيوعيون الذين يذكر التاريخ أربعة منهم: عبد الحميد بن زين وبشير الحاج علي والصادق هجرس وهنري البيغ الذي سجل في كتابه "الإستجواب" تجربته في السجن خلال عدة أعوام. لكنني اخترت من بين هؤلاء القادة والأبطال في الثورة الجزائرية الرئيس الأسبق للجزائر أحمد بن بلّيه . إذ اعتبرت أن سيرته تشبه في حدود معينة سيرة الثورة الجزائرية، منذ إرهاباتها الأولى في النصف الثاني من أربعينات القرن الماضي مروراً بمرحلة تفجّرها في عام 1954، وصولاً إلى المرحلة التي حققت بانتصارها في عام 1962 إقامة أول دولة مستقلة في الجزائر. وهو الحلم المستحيل الذي رافق الجزائريين منذ عام 1830، عام وقوع هذا البلد تحت السيطرة الإستعمارية الفرنسية بعد سحق الثورة التي قادها الأمير عبد القادر الجزائري. وهذا الشبه في حدود معينة بين سيرة الرجل وسيرة الثورة يجعل الكتابة عن بن بلّيه مهمة صعبة. غير أن بن بلّيه ليس الوحيد في هذه الحالة من الشبه بين سيرة القائد وسيرة الثورة. ففي تاريخ الجزائر الحديث أسماء كبيرة برزت في النضال المبكر من أجل الإستقلال، ورافقت مسار الثورة حتى انتصارها. ولعل أكثرهم بروزاً هو عباس فرحات رئيس حكومة الثورة، والهواري بومدين القائد العسكري للثورة. كما برزت أسماء

أخرى في المرحلة التي أعقبت هذا الإنتصار . وبعض هؤلاء الكبار غادروا الحياة إما بالإستشهاد أو بالموت الطبيعي أو بالقتل التعسفي على يد الأثقياء . ومعروف في كل الثورات كيف كانت تقتل الثورة أبناءها، وكيف كان يقتل أبناء الثورة ثورتهم. إلا أن خصوصية الرئيس بن بلّه أنه مرّ في مراحل متعددة منذ بدايات اهتمامه بقضية وطنه الجزائر. وظل صامداً عمراً وعافية وذهناً متوقداً وموقفاً سياسياً وفكرياً كان موضع نقاش في الإتفاق معه وفي الإختلاف، من دون أن يقود الإتفاق إلى التماهي وأن يقود الإختلاف إلى الخصومة. وفي هذا النمط الراقى من التعدد داخل الشخصيات التاريخية وفي علاقاتها بالناس وبالأحداث تبرز إحدى خصوصيات وخصال بن بلّه.

وقبل أن أدخل في تفاصيل سيرة بن بله أود أن أتذكر وأذكر ببعض فقرات من البيان التاريخي الذي أعلن قيام الثورة الجزائرية باسم جبهة التحرير الوطني: "نسطر فيما يلي الخطوط العريضة لبرنامجنا السياسي. الهدف: الإستقلال الوطني بواسطة 1- إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الإجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادئ الإسلامية. 2- احترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني. وسائل الكفاح: انسجاماً مع المبادئ الثورية، واعتباراً للأوضاع الداخلية والخارجية فإننا سنواصل الكفاح بجميع الوسائل حتى تحقيق هدفنا. إن جبهة التحرير الوطني لكي تحقق هدفها يجب عليها أن تنجز مهمتين أساسيتين في وقت واحد وهما: العمل الداخلي سواء في الميدان السياسي وأو في ميدان العمل المحض، والعمل في الخارج لجعل القضية

الجزائرية حقيقة واقعة في العالم كله. وذلك بمساندة كل حلفائنا الطبيعيين. إن هذه مهمة شاقة ثقيلة العبء وتتطلب كل القوى وتعبئة كل الموارد الوطنية، وحقيقة إن الكفاح سيكون طويلاً ولكن النصر محقق. ختاماً وتحاشياً للتأويلات الخاطئة وللتدليل على رغبتنا الحقيقية في السلم، وتحديدًا للخسائر البشرية وإراقة الدماء فقد أعدنا للسلطات الفرنسية وثيقة مشرفة للمناقشة. إذا كانت هذه السلطات تحدها النية الطيبة وتعترف نهائياً للشعوب التي تستعمرها بحقها في تقرير مصيرها بنفسها. 1-

الإعتراف بالجنسية الجزائرية بطريقة علنية ورسمية ملغية بذلك كل الأقاويل والقرارات والقوانين التي تجعل من الجزائر أرضاً فرنسية رغم التاريخ والجغرافيا واللغة والدين والعادات للشعب الجزائري. 2- فتح مفاوضات مع الممثلين المفوضين من طرف الشعب الجزائري على أسس الإعتراف بالسيادة الجزائرية وحدة لا تتجزأ. 3- خلق جو من الثقة وذلك بإطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين ورفع الإجراءات الخاصة وإيقاف كل مطاردة ضد القوات المكافحة. وفي المقابل: 1- فإن المصالح الفرنسية ثقافية كانت أو اقتصادية والمحصل عليها بنزاهة ستحترم وكذلك الأمر بالنسبة للأشخاص والعائلات. 2- جميع الفرنسيين الذين يرغبون في البقاء في الجزائر يكون لهم الإختيار بين جنسيتهم الأصلية ويعتبرون بذلك كأجانب تجاه القوانين السارية أو يختارون الجنسية الجزائرية. وفي هذه الحالة يعتبرون كجزائريين بما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات. 3- تحدد الروابط بين فرنسا والجزائر وتكون موضوع اتفاق بين القوتين الأثنتين على أساس المساواة والإحترام المتبادل. أيها الجزائري إننا

ندعوك لتبارك هذه الوثيقة . وواجبك هو أن تتضم لإنقاذ بلدنا والعمل على أن نسترجع له حريته. إن جبهة التحرير الوطني هي جبهتك وانتصارها هو انتصارك. أما نحن العازمون على مواصلة الكفاح الواثقون من مشاعرك المناهضة للإمبريالية فإننا نقدم للوطن أنفس ما نملك".

تعرفت إلى بن بله في عام 1963. وهو العام الذي كان قد انتُخب فيه بعد خروجه من السجن أول رئيس للجزائر المستقلة. وكان قد اختير في عام الإستقلال (1962) أول رئيس للوزراء. ثم انتخب بعد ذلك رئيساً للجمهورية، حسماً للخلافات التي نشأت بين زعماء الثورة في مرحلة انتصارها امتداداً لخلافاتهم التي رافقت النضال من أجل الحرية والإستقلال في إطار جبهة التحرير لدى تأسيسها وفي الأطر السابقة على ذلك التأسيس وفي الأطر الموازية للجبهة، وصولاً إلى مرحلة الإستقلال .

كنت في ذلك الحين أشارك في وفد عالمي من قادة مجلس السلم العالمي يطوف في القارة الأفريقية للإلتقاء بقادتها الجدد. وكان اللقاء مع بن بله فاتحة تلك اللقاءات. ثم عدت فالتقيت به في عام 1964، عندما كنت أشارك باسم مجلس السلم العالمي في تنظيم مؤتمر شعوب البحر المتوسط من أجل السلام. ثم انقطعت العلاقة معه سنوات طويلة هي سنوات سجنه بعد الإنقلاب عليه وسنوات التنقل بين الجزائر وفرنسا وسويسرا بعد الإفراج عنه. وفي مطالع التسعينات عادت العلاقة معه من جديد خلال زيارته المتعددة إلى لبنان. وتكوّنت لي صداقة معه أعتزّ بها. وباسم

هذه العلاقة دُعيت إلى الجزائر في عام 2005 للمشاركة في احتفالات التكريم التي أُقيمت له برعاية ومشاركة من صديقه القديم الرئيس عبد العزيز بوتفليقة.

بالإستناد إلى هذه العلاقة الحميمة والقديمة مع الرئيس بن بلّه أستطيع أن أخوض غمار الكتابة عنه وعن المراحل المتعددة التي رافقت تطور شخصيته.

لقد سمعت الكثير من بن بلّه عن مراحل حياته المختلفة. وقرأت الكثير مما كتب هو في الإجابة عن الأسئلة التي وجهت إليه حول سيرته. وهي سيرة غنيّة حافلة بالأحداث وبالوقائع، الخاص منها به والعام منها المتعلق بالوضع في الجزائر، إعداداً للثورة وانخراطاً في صفوفها ثم في قيادتها وفي قيادة الدولة التي جاءت تتويجاً لانتصارها.

ولد أحمد بن بلّه في عام 1918 في قرية "مغنية" الواقعة بالقرب من مدينة "وهران" في غرب الجزائر. تلقى دروسه الإبتدائية في مدرسة القرية. وتابع دراسته الثانوية في مدينة "تلمسان". لكنه قطع دراسته قبل الحصول على الشهادة الثانوية بسبب خلاف نشب بينه وبين أحد أساتذته الفرنسيين، عندما سمع من ذلك الأستاذ كلاماً مهيناً للنبي محمد. ولأنه كان يحب الرياضة منذ الصغر فقد انتسب إلى إحدى الفرق الرياضية وصار نجماً رياضياً في كرة القدم وفي الركض السريع. تفتحت عيناه منذ الخامسة عشرة من عمره على السياسة. وصارت هموم بلاده همومه منذ ذلك التاريخ. وقاده اهتمامه بالسياسة إلى الإنتساب إلى "الإتحاد الوطني للمسلمين في شمال أفريقيا" الذي تحوّل في عام 1937 إلى "حزب الشعب" بقيادة "مصالي

الحاج". استُدعي في ذلك العام بالذات للخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي. وظلّ في الجيش حتى عام 1940، العام الذي احتل فيه الألمان فرنسا. فالتحق بـ "حزب الشعب" وصار أحد مناضليه وكوادره. إلا أنه سرعان ما استدعي للخدمة العسكرية من جديد ونال أعلى وسام من الجيش الفرنسي. وفور انتهاء الحرب العالمية الثانية، وبعد خروجه من الجيش الفرنسي، عاود نشاطه في صفوف "حزب الشعب". وأسس مع مجموعة من رفاقه في الحزب منظمة سرية اعتمدت الكفاح المسلح طريقاً لتحرير الجزائر من الإستعمار. وكانت تلك المرحلة هي الأولى من مراحل الإعداد للثورة. اعتقل في عام 1950 من قبل السلطات الفرنسية. لكنه استطاع أن يفر من السجن. وذهب إلى سويسرا. وفي عام 1954 ترأس الإجتماع التأسيسي الذي شارك فيه عدد من أبطال الثورة الجزائرية. وهو الإجتماع الذي تقرر فيه تشكيل "جبهة التحرير الوطني الجزائرية" وتم فيه إعلان الثورة. وكان ذلك في أول تشرين الثاني من العام ذاته. اعتقل بن بله في عام 1956 من قبل السلطات الفرنسية مع عدد من رفاقه من قادة الثورة بعد إجبار الطائرة التي كانت تقلّهم من القاهرة على الهبوط في الجزائر. شارك في عام 1958 وهو في السجن في المفاوضات التي بدأها الجنرال ديغول حول استقلال الجزائر بعد عودة هذا الأخير إلى السلطة في فرنسا. وكان ديغول في تلك الفترة قد قرر التفاوض مع قادة حركات التحرر الوطني في البلدان التي كانت تدور في فلك السيطرة الفرنسية في شمال أفريقيا وفي غربها من أجل الإتفاق معهم لنقل السلطة إليهم في الطريق إلى استقلال بلدانهم.

أطلق سراح بن بله في عام 1962، وعاد إلى الجزائر لينضم إلى رفاقه من قادة الثورة في المفاوضات حول الإستقلال. وعندما انتهت المفاوضات بإعلان استقلال الجزائر انتخبه رفاقه إلى موقع أول رئيس للحكومة في عام 1962، ثم إلى أول رئيس للجمهورية في عام 1963. وشارك من موقعه كرئيس للجزائر في مؤتمر باندونغ الذي أسس لولادة حركة عدم الإنحياز. وكان شريكاً لكبار رجالات تلك الحركة من المؤسسين وهم : جواهر لآل نهرو وتشو إن لاي وسوكارنو وتيتو وجمال عبد الناصر. قاد في عام 1964 ، من موقعه كرئيس للجزائر وكرئيس لجبهة التحرير الوطني الجزائرية، حواراً واسعاً مع القوى الثورية الجزائرية بكل مكوناتها، جبهة التحرير والشيوعيين والتروتسكيين وعدد كبير من المنقذين المستقلين، حواراً من أجل صياغة "ميثاق الجزائر" الذي تم فيه الإعلان عن التوجه الإشتراكي للجزائر من خلال الدمج العقلاني بين قيم الإسلام وقيم الإشتراكية. وكان الهدف من ذلك الميثاق إدماج كل قوى التغيير بقيادة جبهة "التحرير" في عملية الانتقال بالجزائر إلى المستقبل الجديد.

في عام 1965 انقلب على بن بله صديقه ورفيقه هواري بومدين ووضعه في السجن. واستلم رئاسة الدولة بدلاً منه. وظلّ بومدين في موقع الرئاسة حتى وفاته. بعد وفاة بومدين انتقلت الرئاسة إلى الشاذلي بن جديد. وكان من بين أولى قرارات الشاذلي إطلاق سراح بن بله في عام 1981.



كان بن بلّه خلال وجوده في السجن يتابع أحداث بلاده وأحداث العالم العربي والعالم. وكان يقرأ كثيراً. وقد جعلته متابعاته تلك وأحداث حياته والمصير الذي وضع فيه وقراءاته، جعلته جميعها يخرج باستنتاجات جديدة حول ما اعتبره مهمات حياته في المرحلة التي أعقبت خروجه من السجن. وكان أول وأهم ما توصل إليه تفكيره هو أن العالم يتغير في اتجاهات متناقضة، وأن عليه أن يقف، استناداً إلى تجربته الغنية، مع القوى المناهضة للإتجاهات السلبية التي عبّرت عنها الميول المتوحشة للرأسمال المعولم. فانحاز إلى الحركة العالمية المناهضة من أجل نظام عالمي جديد. فأسس مع عدد من أصدقائه منظمين عالميتين هما: "شمال جنوب" و"الشمال - الجنوب لحوار الثقافات". وجعل مقرّهما جنيف. وكان شريكه في التأسيس صديقنا اللبناني المشترك أحمد السويسي. لكن الأمور سارت في المؤسستين بعد بضع سنوات من العمل إلى خلاف ما تأسست عليه، وانفرط عقدهما بخلاف واختلاف مؤسفين.

لفتني في حديث بن بله عن مصالي الحاج مؤسس "حزب الشعب" وزعيم الحركة التي حملت اسم "الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية" الذي اختلف مع قادة الثورة وانفصل عنهم، لفتني تقديره لهذا الزعيم الجزائري الكبير. فهو يتحدث عنه بإعجاب. ويشير إلى أنه كان من بين الأوائل الذين كانت الوطنية الجزائرية تحولهم إلى موقع العداء للإستعمار الفرنسي وتحثهم على العمل لتحرير بلدهم والانتقال به إلى رحاب الحرية والإستقلال. ويقول بن بلّه في حديثه عن مصالي

الحاج بأنه نشأ في مناخ ثوري منذ البدايات. والتقى في حسّه الثوري مع الثورة البولشفية في أعوام انتصارها الأولى. كما التقى مع الشيوعيين الجزائريين الأوائل. وعندما اختلف مع الشيوعيين أنشأ حزب "نجم شمال أفريقيا". ويقول بن بلّه إن مصالي الحاج قد تأثر في تحولاته السياسية، بحركة عبد الكريم الخطابي الثورية في مراكش المعروف ببطل الريف. وكان من بين الذين تأثر بهم كذلك الأمير شكيب أرسلان.

هذه السيرة المكثفة لبن بلّه تثير الكثير من الأسئلة والكثير من الجدل. وقد أتيح له، من خلال العديد من مجالات نشاطه، أن يجيب عن عدد من تلك الأسئلة وأن يشارك في الجدل حول سيرته وحول مواقفه. وجاءت بعض تلك المساهمات في كتب وفي أحاديث أجريت معه وفي محاضرات ألقاها في أماكن وفي مناسبات مختلفة. كما تضمنتها كتب وكتابات صدرت حول سيرته وحول مواقفه، كتب بعضاً منها جزائريون وعرب وكتب بعضاً منها فرنسيون.

لن أدخل هنا في تفاصيل ما ذكره هو حول سيرته وحول سيرة الثورة. ففي تفاصيل السيرتين آراء يختلف المؤرخون حولها، سواء في مرحلة الإعداد للثورة أم في فترة قيامها أم في المرحلة التي أعقبت انتصارها في عهد بن بلّه هو وفي عهد خلفه بومدين الذي انقلب عليه ووضعه في السجن، وجعل من عهده هو العهد الذهبي للجزائر الحديثة. إلا أن ما يلفت النظر في حديث بن بلّه عن صديقه ورفيقه بومدين اتهامه إياه بأن انقلابه كان انقلاباً أميركياً. لكنه يضيف بأن الشيوعيين الذين كانوا

من أوائل ضحايا حكم بومدين في الجزائر هم الذين وضعوا بالإتفاق مع السوفيات صيغة الحكم الذي ارتبط باسم بومدين في السياسة وفي الإقتصاد وفي سوى ذلك من أمور. وجدير بالذكر أن بن بله يقول في بعض أحاديثه إنه هو الذي طلب من بومدين أن يوقف دراسته في الأزهر ويذهب إلى الجزائر ليشترك في الثورة. إلا أن بن بله ذاته الذي يعيب على بومدين تقليده السوفيات في اتباعه نموذج الحزب الواحد لا يذكر دوره هو في اعتماد جبهة التحرير حزباً أوحداً، وفي دعوة الجميع للانخراط في صفوفها إذا كانوا يريدون خدمة الجزائر في مرحلة حصولها على الإستقلال. ومعروف أن بن بله لم يعترف عندما كان في موقع الرئاسة الأولى بأي حزب آخر في الجزائر. لكنه تسامح مع الشيوعيين الجزائريين في نشاطهم. وتسامح معهم في الإستمرار بإصدار صحيفتهم اليومية "الجزائر الجمهورية" على امتداد عهد رئاسته القصير. وكانت تلك الصحيفة الأولى انتشاراً في الجزائر في ذلك التاريخ لما تميزت به ولما ارتبط بمؤسسيها والمشرفين عليها من دور مجيد في الثورة فكرياً وكفاحاً سياسياً وعسكرياً. لكن المفارقة في موقف بن بله هو أنه صار بعد خروجه من السجن ضد مبدأ الحزب الواحد. وذهب في الإعتراض على فكرة الحزب الواحد في أحد أحاديثه إلى القول بأن بدعة الحزب الواحد هي من جملة الأفكار والنماذج والسياسات التي استوردتها أنظمة الإستبداد العربية من الإستبداد الشرقي القديم. وأضاف بأن الإستبداد ذاته هو من جملة مستوردات العرب من تواريخ قديمة. وفي هذا الإقرار بضرورة الديمقراطية والتعددية السياسية والحزبية والفكرية من قبل بن بله، حتى ولو جاء

متأخراً، ما يؤكد قدرة الرجل على مراجعة أفكاره وتقديم النصح لشعبه للإستفادة من تجاربه ومن تجارب الآخرين في بلاده في البحث عن مستقبله.

لا يتردد بن بله في كل أحاديثه القديمة والحديثة عن إعلان انتمائه إلى الإسلام ديناً وثقافة. لكنه ينظر إلى الإسلام نظرة مختلفة عن الكثيرين ممن يدعون الإلتزام بالإسلام ثقافة وقيماً وأفكاراً. ويختلف عن رؤية المستشرقين للإسلام وعن قراءتهم له ولأفكاره. إذ هو يحاول أن يرى ضرورة أن يدخل الإسلام في تحولاته مع حركة التحولات الجارية في التاريخ، حتى لا يبقى في نقطة ثابتة تخرجه من التاريخ وتضعه في موقع مناقض للتقدم. فهو يعتبر أن التاريخ هو دائماً في حركة متواصلة. وهو يناقش، إنطلاقاً من رؤيته هذه للتاريخ، عدداً من أفكار ماركس الأساسية. فيختلف معها رغم تقييمه لدور ماركس كعالم أسهم إسهاماً أساسياً في تحديد سمات الرأسمال ووظائفه وفي تحديد آليات الإستغلال التي تشكل جوهره وجوهر تطوره وتحكمه. إلا أن بن بله يعتبر أن ما ركس كان في مجمل أفكاره مكملاً لمن سبقوه في الفكرة الإشتراكية وفي البحث في المسائل ذات الصلة بالإقتصاد. لكنه يرفض مقولة ماركس حول نهاية الفلسفة الكلاسيكية وبداية عصر الفلسفة التي ترمي إلى تغيير العالم. ويرفض مادية ماركس التي يختلف فيها مع هيغل الذي استمد ماركس منه جدليته وطورها لتصبح مادية جدلية.

إلا أن أطرف ما في نقاش بن بله مع ماركس حول الإشتراكية وحول آلية تحقيقها هو نقضه لدور "الكتلة التاريخية" المتمثلة بالطبقة العاملة. إذ يشير بن بله

إلى أن هذه الطبقة لم تعد اليوم كما تصورها ماركس وكما حدد لها دورها التاريخي في النضال لتغيير العالم. إذ هي تتلاشى في نظر بن بله كقوة اجتماعية كبيرة، وتصبح أكثر فأكثر قوة هامشية في البلدان الرأسمالية المتطورة وحتى في البلدان النامية. مجمل هذه الآراء وردت في حديث شامل ومطوّل مع بن بله أجراه معه محمد خليفة وصدر في كتاب بعنوان "بن بله: حديث معرفي شامل". لنقرأ بعض أفكار بن بله في هذا الحديث الشامل حول العلوم الإجتماعية:

".. العلوم ككل، بما فيها العلوم الإجتماعية، والإبستمولوجية الجديدة، ليست محايدة، ولم تنزل من السماء لتكون صالحة لكل الناس، في كل زمان ومكان. فهي تكونت حول بعض المعايير والمقاييس الفلسفية والثقافية. وهذا ما يسمونه بالذات "البارادغم" الذي يمكن أن يتغير من ثقافة إلى أخرى، ومن أرض حضارية إلى أرضية حضارية أخرى. هذه العلوم الإنسانية جميعاً مصابة بالمنزلق الذي كثيراً ما تكلمنا عنه، المنزلق نحو الكم. وهي الفكرة الأساسية التي ظهرت قبل خمسة قرون "الريح"، والتي قادت إلى الإستغلال..العلوم الإجتماعية ليست بريئة من هذه الفكرة. إنها منظور كل شيء. ولنأخذ أقوال مثقفي وسوسيولوجي الغرب نفسه، لنقرأ ما يسمّى (مدرسة فرانكفورت) العظيمة الخصبية، التي انطلقت بعد الحرب العالمية الثانية، أي بعد هزيمة النازية والفاشية. وقد أسسها اليهود. وجميع أعضائها منهم. لقد حاولوا كيهود البحث الكامل عن العوامل التي قادت إلى النازية والفاشية. وقد استطاعت هذه المدرسة أن تنبه إلى أشياء وأفكار ثمينة جداً. أبرز من في مدرسة

فرانكفورت هو هيربرت ماركوز وكتابه (الإنسان ذو البعد الواحد). لقد توصلوا جميعاً إلى أن العلوم الغربية جميعها منبثقة من أرضية ثقافية معينة ومن فكرة الكم بالذات في حساب كل شيء، الذي أدى إلى التمرکز، ثم إلى الحكم المركزي، أي إلى التسلط الديكتاتوري.. هذه المدرسة كشفت عن الوحدة العضوية المتسلسلة بين الأشياء والأفكار. وهذا بالذات، بدوره، ما دعاني شخصياً لأن أربط بين مقتل أول هندي أحمر الذي قتل يوم صرخ كولمبوس (أرض..أرض..) وبين عملية التلوث الحاضرة، مروراً بالمائة مليون قتيل من زوج أفريقيا وبالإستعمار وبهتلر وبيجو وستالين، وبالإنتحارات والأمراض العقلية والنفسية. هناك نسق عضوي، سلسلة واحدة مترابطة عضوياً، حلقة فحلقة. إن العلوم الإجتماعية مصابة بهذا الخلل بالذات. مثلاً الكل متفق على شيء واحد هو أن مأساة الإنسان بدأت مع الضوء الذي أتى بعد الثورة الفرنسية وعصر التنوير. الكل متفق على أن الذي أدى للتنظيم المتسلط هو الأفكار والقوانين التي جاءت عن الدولة منذ ذلك الوقت. وهذا الجانب لم تعالجه مدرسة فرانكفورت وإنما المدرسة الفرنسية بالذات، وبالذات ميشال فوكو الذي ربما كان أكبر فيلسوف عالمي حالياً. المهم من كل هذه الأفكار أن السوسولوجيا ليست محايدة بل ساعدت تاريخياً على الإستعمار وقادت خطاه. والذي أصبح ثابتاً أن المستشرقين جميعاً كانوا في جهاز هو مثل جهاز المخابرات الحديث. وقد كتب د. إدوارد سعيد في هذا الجانب مفصلاً وبعلمية شديدة."

إن مجمل أحاديث بن بله تشير إلى أنه من القلائل بين قادة الدول الذي يتمتع بهذا القدر العالي من الثقافة المتنوعة المتعددة وبهذا العمق في تحليل الأشياء والأحداث وبهذه القدرة الإستثنائية في الإستنتاج. وفي ظني فإنه اكتسب هذه الثقافة في فترة السجن التي سبقت استلامه مقاليد السلطة بعد انتصار الثورة وفي فترة السجن التي قضاها بعد الإنقلاب الذي أطاح حكمه.

إلا أن أجمل ما في هذه الثقافة التي تميز بها بن بله هي إطلالته على الآداب والفنون. وهي أيضاً واحدة من سمات هذا الرجل الذي، وإن كنت تختلف معه في بعض مواقفه وآرائه، فإنك لا تستطيع إلا أن تحترم فيه عقله ومناقبيته وثقافته الواسعة وانفتاحه على الحوار مع الآخر. غير أن بن بله، إذ يتحدث عن قراءاته المتعددة في الفكر وفي السياسة وفي الآداب والفنون، فإنه يشير إلى حبه للموسيقى مؤكداً بأن لها تأثير عميق عليه. ويذكر في هذا السياق سيد درويش ومحمد عبد الوهاب كنموذجين للموسيقيين الذين يحب أن يستمع إليهم. أما بالنسبة للأدب ولالأدباء فهو يعتبر أن الروائي الجزائري محمد ديب هو الأكثر قرباً من عقله وفكره لأنه كان في نظره قد تنبأ بالثورة قبل قيامها في ثلاثيته المعروفة الدار الكبيرة، الحريق، النول. لكن بن بله يعدد من بين الأدباء الجزائريين الذين أحبهم إلى جانب محمد ديب كاتب ياسين ومالك مراد والطاهر وطار. ويعتبر الروائي المصري يوسف ادريس أبكثر عمقاً من نجيب محفوظ من حيث المضمون. وهو رأي يشاركه فيه عدد من النقاد المصريين. ويذكر بين الذين أحبّ أدبهم من الأجانب تولستوي وشولوخوف الروسيان وفكتور هيغو

الفرنسي. ويتحدث بإعجاب عن عصر التنوير الذي مهد للثورة الفرنسية. لكنه في السياسة وفي جذور انتماءاته إليها في مرحلة انطلاق الثورة يذكر باحترام وتقدير كبيرين الرئيس جمال عبد الناصر الذي التقاه لأول مرة في مرحلة ما بعد الثورة. وهي علاقة نشأت في الفترة التي كان يقيم بن بله فيها في القاهرة. وهي كانت بالنسبة إليه فترة تأسيسية في حياته. تعلم فيها الكثير لصالح الثورة. وهو يعتبر نفسه ناصريّ الهوى والفكر، رغم أنه كان في علاقته بعبد الناصر بعد أن أصبح رئيساً للجزائر صريحاً في الإتفاق معه وفي الإختلاف. كما يذكر بعلاقاته الحميمة مع عدد من الرؤساء والزعماء من قادة آسيا وأفريقيا. لكنه يحتفظ بمكان خاص للقائد الثوري الأرجنتيني تشي غيفارا الذي يقدر فيه إخلاصه لأفكاره ولمبادئه ويقدر فيه مزاياه الإنسانية.

قلت منذ البداية إن سيرة أحمد بن بله مثيرة للجدل وللأسئلة لأنها مرتبطة في صورة محيرة ومعقدة بسيرة الثورة التي كانت من أهم ثورات النصف الثاني من القرن الماضي في شكل قيامها وفي شكل انتصارها، وفي الصيغة التي أعقبت انتصارها. وكانت في كل مراحلها تجمع بين الشيء ونقيضه. لكنها صارت تفقد بريقها بفعل كثرة التناقضات التي رافقتها في مراحلها المختلفة، لا سيما في المرحلة التي أعقبت انتصارها.

أحمد بن بله هو أحد كبار الشهود على عصره وأحد رموزه في آن.